حادث الترشناف

للقصصي الفرنسي موبسان

بقلم الأستاذ ناجي الطنطاوي

كان والترشناف ضخم الجثة ثقيل الخطى ، يشكو ورماً في قدميه يعوقه عن المشي ويمنعه من الحركة ، وكان رضيّ الخلق ، يؤثر الهدوء ويميل إلى الراحة ، يحب أن يبكر في المنام ويتأخر في القيام وأن يأكل بهدوء وبطء ويتخير أطايب الطعام ، ويشرب الجمة في مصانعها . يكره التقتيل ويعاف منظر الدماء ، ويبغض بعقله وغريزته وسائلها وآلاتها من المدافع والبنادق والمسدسات والسيوف . ويزداد بغضه للحراب لأنه يرى ضخامة جثته فيدرك عجزه عن الحركات السريعة التي تتطلبها هذه الأسلحة. وكان أباً لأطفال أربعة يحبهم أعمق الحب وأشده ... لذلك كله كان يعد نفسه أشقى الناس وأتعس رجل على وجه الأرض منذ وطئ الأراضي الفرنسية جندياً في الجيش الألماني الفاتح . فابتعد عن أولاده وعن زوجته الشقراء الجميلة وحرم عطفها وحنوها وقبلاتها وجفا سعادته وهجر راحته .

ولما هبط الليل بظلامه ، تمدد على الثرى متلفعاً بثيابه إلى جانب رفاقه الذين كان يعلو شخيرهم ، وراح يطيل التفكير في أهله الذين تركهم ، وبالمخاطر التي تتربص به ، وحدث نفسه قائلاً : لو قدر لي أن أموت فمن لأطفالي من بعدي ؟ من يقوم بأودهم وتربيتهم وتنشئتهم ؟ لقد عقد قروضاً قبل ذهابه ، ترك لهم بها قليلاً من المال ، ولكن ذلك المال لن يكفيهم طويلاً ، وكانت هذه النتيجة المحزنة تدفعه إلى البكاء كلما فكر فيها !

وشعر في بدء الحرب بضعف في ساقيه كاد يؤدي به إلى السقوط في الميدان إعياء لولا علمه بأن كل جندي في الجيش سيطأ آنئذ جثته بقدميه ، وقف شعره لسماع أزيز الرصاص المدوي من كل جانب

ولقد مضت عليه شهور عدة ، وهو يحيا في جو من الرعب والفزع !

وكانت فرقته تتقدم نحو نورمانديا ، وكلفت يوماً مع كتيبة أخرى صغيرة بكشف طرف من البلاد فرأوا الصحراء هادئة ، ولم يكن هناك ما يدل على مقاومة مدبرة . ولكن لم يكد هؤلاء الروسيون ينزلون وادياً ذا حفر عميقة ، حتى أوقفتهم طلقات عنيفة وألقت عشرين جندياً صرعى ، وبرزت على حين غرة كتيبة من المتطوعين الفرنسيين من غابة صغيرة وتقدموا بخفة وحمية وحرابهم على البنادق !

ظل والترشناف أول الأمر ساكناً ، وبلغ به الذهول حداً لم يفكر فيه حتى في الهرب ، ثم شعر برغبة جامحة في الفرار ، ولكنه ذكر أنه لا يسبق السلحفاة في العدو ، ورأى الفرنسيين الضامرين الذين كانوا يقفزون كقطيع من المعزى ، وكادوا يصلون إليه ، فحار في أمره وحانت منه التفاتة فرأى أمامه على بعد خطوات ست هوة واسعة ملأى بالأعشاب ومغطاة بالأوراق الجافة ، فألقى

بنفسه فيها ضاماً رجليه غير ناظر إلى بُعد غورها ، فقفز كما يقفز المرء إلى النهر من جسر منخفض فهوى فيها واستقرّ جسمه فوق أشواك العوسج الحاد التي تركت في وجهه ويديه جراحاً تسيل منها الدماء ، وجلس عليها كما يجلس على سرير من الأحجار .

ورفع عينيه ، فرأى السماء من خلال الكوّة التي أحدثها سقوطه ، وخشى أن تشيَ به هذه الكوّة فزحف بحذر يجرّ رجليه حتى بلغ أقصى الهوة مستظلاً بسقفها المؤلف من الأغصان المتشابكة وبذل كل ما تبقى لديه من جهود ليبتعد عن ميدان القتال ونهض ، ثم جلس القرفصاء مرة أخرى كالأرنب وسط الأعشاب الطويلة الجافة .

وظل حيناً من الدهر يصغى إلى أزيز الرصاص ودويّ المدافع وصيحات الجنود وأنّات الجرحى ثم بدأت الأصوات تخفت والأنّات تضعف ، حتى انقطعت وساد السكون والهدوء .

وعلى حين غِرّة رأى أمامه شيئاً يتحرك ، فخالط قلبه ذعر وهلع ، ولم يكن ذلك إلا عصفوراً صغيراً حط على غصن . فاضطربت من حركته الأوراق الجافة ، وظل قلب والترشناف ساعة كاملة يضرب ضربات حادة قوية سريعة متتابعة !

أقبل الليل وأقبل معه ظلامه الذى ملأ الهوة ! وراح الجندى المسكين يفكر : ماذا يجدر به أن يعمل الآن ؟ ما هى الخاتمة التى تنتظره ؟ أيلتحق بفرقته ؟ ولكن كيف يلتحق بها ... ومن أين ؟ إنه إن فعل ذلك عاود حياة الخوف والقلق الرهيبة ، حياة الذعر والهلع ، حياة المتاعب والآلام التى قاساها منذ بدء الحرب ! ... كلا ! إنه لا يجد فى نفسه الشجاعة على معاودتها ، ولا يحس القوة الكافية لتحمل عناء السير واقتحام الأخطار كل لحظة .

ولكن ماذا يجدر به أن يعمل الآن ؟ ليس بوسعه أن يبقى فى هذه الهوة مختبئاً حتى نهاية الحرب ؛ ولو لم يكن من الواجب عليه أن يأكل لما حفل بالبقاء فيها ، ولكن يجب أن يأكل وأن يأكل كل يوم .

وألفى نفسه وحيداً بسلاحه وبزّته ، فى أرض العدو ، بعيداً عن رفاقه الذين يستطيعون الدفاع عنه فسرت فى جسمه قشعريرة رهيبة . وصاح فجأة يحدث نفسه : « ليتنى أوخذ أسيراً » وأحس برغبة جامحة فى أن يكون أسيراً لدى الفرنسيين ... وهل هناك أهنأ من حياة الأسر ؟ سيتخلص من آلامه وسيقدم له طعام ومأوى ، وسيغدو بمأمن من أزيز الرصاص وصليل الظُّبى ، ولن يعرف فؤاده الوجل أو الذعر ، سيضمه سجن محروس حراسة جيدة . أسير ؟ ياله من حلم عذب باسم !

ووطن العزم على تسليم نفسه ونهض ينفذ هذا العزم دون تردّد ولا إحجام .

ولكنه عاد إلى هدوئه ووجومه ، ووثبت إلى ذهنه أفكار محزنة وخالطت نفسه مخاوف جديدة : إلى أين يذهب لتسليم نفسه ؟ وكيف يسلمها ؟ وأى السُّبل يسلك ؟ وازدحمت فى رأسه صور الموت الرهيبة ...

إنه إن سار وحده ، وعلى رأسه قبعته المعروفة ، فسيكون عرضة لأخطار داهمة هائلة ، إذ ماذا بوسعه أن يعمل إذا التقى فى طريقه بفلاحين ؟ إن هؤلاء لا يرون بروسياً ضالاً أعزل إلا ويذبحونه كما يذبحون الكلاب التائهة ! سيمثّلون به بمعاولهم ومناجلهم ومساحيهم ، وسيحيلونه إلى (كبة) من اللحم

أو عجينة تدفعهم شراسة المغلوب الثائر الحانق

وإذا قُدر له أن يلتقى بالمتطوعين الفدائيين فإن هؤلاء المستبسلين الحانقين الذين لا يعترفون بقانون أو نظام سيصوّبون عليه بنادقهم قصد التسلى والمزاح والتمتع بسرور ساعة ، وسيكون رأسه الملقى أمامهم موضوعاً لضحكهم. وتصوّر نفسه إذ ذاك مسنداً إلى حائط ، وأمامه اثنتا عشرة بندقية كأن فوهاتها الصغيرة المستديرة السوداء تبادله النظر

وإذا التقى بالجيش الفرنسى نفسه سيظنه أفراد الطليعة مستكشفاً جريئاً ماكراً، وسيرمونه بالرصاص. وتصوّر نفسه واقفاً وسط الحقل مصغياً إلى أزيز الرصاص الذى يوجهه إليه الجنود من خنادقهم منحط القوى مثقب الجسم كالمصفاة. وهوى جالساً كرة أخرى إذ لم يجد من ورطته مخرجاً .

وكان الليل الصامت الكالح قد شمل الأرض ولفها بظلامه . وبقى والترشناف هادئاً صامتاً يرتجف جسمه لكل صوت خافت ولكل همس ضعيف . وأحدث أرنب بجانبه حركة خفيفة فطار لبه شعاعاً . وصاحت بوم فتمزق شغاف قلبه وخالط نفسه فزع ألم له أشد من ألم الجراح . . . وفتح عينيه المتورمتين محاولاً أن يرى فى الظلام ، وكان يخيّل إليه فى كل لحظة أنه يسمع أصوات مسير بالقرب منه

وقضى ساعات قلقاً مضطرباً ، ثم بدت لعينيه السماء النيرة من خلال كوة سقفه فشعر براحة كبرى ، وتراخت أعضاؤه وسكن فؤاده، وأغمض عينيه وغاب فى نوم عميق !

ولما استيقظ رأى الشمس قد أوشكت أن تبلغ منتصف السماء ، فأدرك أن الوقت ظهر ، ولم يكن يمكّر سكون الحقول وهدوءها الحزين أى صوت أو همس ، وأحس بالجوع الشديد ينهك جسمه ، فتثاءب — وتحلب فمه عندما تخيّل « الأكارع » الجيدة التى تُقدم للجنود، وأخذت معدته تؤلمه آلاماً شديدة . ولما نهض وسار بضع خطوات ، شعر بضعف ساقيه فجلس يفكر ، وظل ساعتين أو ثلاثاً يوازن الأفكار فى رأسه ولا يستقر على خطة معينة، وكان مغلوباً على أمره يائساً تتقاذفه أكثر الأفكار تناقضاً !

وخطرت له أخيراً فكرة بدت له منطقية وممكنة التطبيق : ذلك أن يرقب الفلاحين ، وعندما يرى فلاحاً سائراً بمفرده أعزل من السلاح ومن أدوات الزراعة الخطرة يركض أمامه ، ويلقى بنفسه بين يديه مشيراً له بالتسليم .

ألقى بقبعته جانباً ، كى لا تشى به ذروتها وأظهر رأسه من الكوة بحذر كثير فلم يبد لعينيه إنسان . ورأى فى الناحية اليسرى عند أقصى أشجار الشارع قصراً كبيراً ذا أبراج ، وظل ينتظر حتى المساء ، متألماً ضجراً ، ولم ير إلا أسراب الغربان ، ولم يسمع إلا قرقرة أحشائه . ولما لفّه الليل تمدّد فى أعماق مخبئه ونام نوماً متقطعاً مليئاً بالأحلام المزعجة وأحس بالكابوس يجثم على صدره. لقد كان ينام نوم الجائعين.

ولما انبلج الفجر ، راح يتربص من جديد ، ولكن البيداء ظلت يباباً كالأمس وعاوده خوف جديد ، الخوف من أن يقضى جوعاً ، وتخيّل نفسه ممدداً فى أعماق مخبئه على ظهره مغمض العينين ، تدنو من جثته الفانية كل أنواع الحشرات تلتهمه من كل جانب وتنساب متغلغلة فى ثيابه لتنال من لحمه البارد ، وغراب كبير يفقأ عينيه بمنقاره الحاد فأحس بالجنون وخاف أن يغمى عليه من الضعف فلا يطيق السير وصمم آنئذ على أن يقصد القرية مسرعاً ، وعزم على مقاومة كل ما يعترضه دون خوف أو وجل ،

ولكن ثلاثة من الفلاحين بدوا له ذاهبين إلى الحقل متشكين مساحيهم فغار فى نخبته . ولما أظلم عليه الليل خرج من الهوة على مهل وسلك طريقه محتى الظهر واجب القلب قاصداً القصر البعيد ، وفضل دخوله على دخول القرية التى بدت له مخيفة كأنها غار ملىء نموراً . وكانت نوافذ القصر السفلى مضاءة وإحداها مفتوحة تفوح منها رائحة الشواء رائحة تأخذ طريقها من الأنف إلى البطن دون أن يعترضها شىء ، فتشنج ولهث وجذبته الرائحة دون أن يستطيع مدافعتها ، وصبت فى أعصابه جرأة المستميت ، فدنا على حين غرة من النافذة حتى بدت من الداخل قبعته بوضوح ، وكان فى الغرفة ثمانية من الخدم حول مائدة يتناولون طعام العشاء ، فأبصرته خادمة ففغرت فاها ، وأهوت الكأس من يدها ، وجحظت عيناها . فنظروا جميعاً إلى ما وراء النافذة وظلوا شاخصين مخافة هجوم العدو

يا إلهنا ... لقد هاجم البروسيون الحصن ...

وكانت صيحة واحدة خرجت من ثمانية أفواه فى وقت واحد . صرخة رهيبة هائلة ... صرخة الذعر أعقبتها وثبة عنيفة صارخة وتدافع واختلاط ثم انهزموا مأخوذين مشدوهين وابتدروا الباب الداخلى ...

تساقطت الكراسى ورمى الرجال النساء ، ومروا عليهن ، وفى ثانيتين اثنتين أضحى المكان خلاء مهجوراً ، وفيه المائدة الملأى بالأطعمة أمام عينى والترشناف الذى دهش مما يرى وهو قائم فى شباكه . وبعد تردد ثوان معدودة تسور الحائط ، وأقبل على الصحاف ، وكان يرتجف من جوعه كالمحموم ، ولكن عراه خوف شل حركته ، فراح يصغى . وبدا البيت كأنه يهتز ويرتجف : أبواب تغلق ، خطوات سريعة تنتقل على السقف الخشبى . أرهف البروسى القلق أذنيه إلى هذه الأصوات المختلطة ، ثم سمع هدة مبهمة كأن أجساماً هوت من الطابق العلوى ثم انقطع كل صوت ووقفت كل حركة وغدا القصر صامتاً كالقبر ! ...

جلس والترشناف أمام صحن لم تمد إليه يد وراح يأكل ويأكل بلقم كبيرة كأنه خشى أن يقبض عليه قبل إنهاء طعامه ، وكان يلقى باللقم بكلتا يديه إلى فمه المفتوح كالنار ، وكانت تنزل قطع اللحم واحدة بعد أخرى إلى معدته . فينتفخ بلعومه أثناء مرورها ، وكان أحياناً يتوقف عن الطعام خائفاً أن ينفجر بطنه الذى كان يشبه أنبوباً ممتلئاً ، ويتناول زجاجة البيرة يصب منها فى حلقه يغسل زوره كما يغسل مجرى مسدود . أفرغ كل الصحاف وجميع الزجاجات ثم سكير من الطعام والشراب فتنمر واحمر وجهه وراح يشهق : مضطرب التفكير زرق الفم . وفك أزرار بذلته ليتنفس . ولم يكن بوسعه أن يسير خطوة واحدة فأغمض عينيه وتبلدت أفكاره ، ووضع ذراعيه على المائدة وألقى برأسه عليها وفقد حسه تدريجياً . . . ! !

* * *

كان الهلال الشاحب يلقى نوره الضئيل على هام الأشجار ، وكان ذلك وقت السحر البارد ، وكانت الظلال تتمدد فى الحرج كثيرة صامتة ، وفى بعض الأحيان كان ينعكس شعاع من أشعة القمر على قطعة حديد أو زجاج . . . وكان القصر الصامت جاثماً فى الظلام لا يضىء فيه إلا نافذتان فى الردهة !

وفجأة شق السكون صوت عاصف صائحاً : إلى الأمام ... إهجموا يا أبنائى . وفى لحظة واحدة تحطمت الأبواب والنوافذ أمام هذا السيل الآتى

من الرجال الذى هجم محطماً كل شيء ، وتواثبوا إلى المطبخ حيث يرقد والترشناف بهدوء ، وصوّبوا إلى صدره خمسين بندقية ، وألقوه أرضاً ودحرجوه ، وأمسكوا به وقيّدوه من قدميه إلى رأسه . . . وكان يلهث دهشاً . وازداد بلادة فما يفهم مما يحيط به شيئاً ، وتحمّل الضربات من أعقاب البنادق مجنوناً من الخوف والرعب ! . . . وفجأة أقبل ضابط ضخم مزيّن الصدر بالأشرطة والشارات ، فوضع قدمه على صدره وصاح به : أنت أسيرى . سلّم نفسك . فلم يسمع البروسى من كل ذلك إلا هذه الكلمة الوحيدة : أسير ! . . . وأجاب بالألمانية مضطرباً : نعم . نعم ...

فأنهضوه وأوثقوه بالكرسى وفحصه باهتمام كبير هؤلاء المنتصرون عليه الذين كانوا يلهثون كالحيتان ! وجلس منهم كثيرون تملكتهم الدهشة وأصنامهم التعب . وراح والترشناف يضحك واثقاً أنه أصبح أسيراً ! ودخل جندى آخر وأعلن قائلاً :

— سيدى الكولونيل ، لقد فرّ الأعداء . ويُظن أن أكثرهم قد جُرح . . . لا نزال سادة الموقف ! ...

فصرخ الضابط الضخم وهو يمسح وجهه قائلاً : « لقد انتصرنا » ... وراح يخطّ فى مفكرة صغيرة :

« بعد نضال مستميت اضطر البروسيون إلى الهرب حاملين موتاهم وجرحاهم الذين قدّروا بعد المعركة بخمسين رجلاً ، وتبقى كثير منهم بين أيدينا أسرى » !

وتكلم الجندى الشاب مرة أخرى قائلاً :

— بمَ تأمرنى يا سيدى الكولونيل ؟

فأجاب الكولونيل :

— سنحزم أمتعتنا ونرحل قبل أن نهاجم ثانية بمدفعية أقوى وأكبر ...

وأعطى الأمر بالرحيل .

فتهيأت الفرقة فى الظلام بين جدران القصر ، وبدأت المسير محيطة بوالترشناف إحاطة السوار بالمعصم ، وأمسك به ستة محاربين أشدّاء ومسدساتهم فى أيديهم ، وأرسلت طلائع لكشف الطريق ، وتقدم أفراد الفرقة بحذر مستريحين بين آونة وأخرى وبلغوا عند شروق الشمس — مقرّ نائب بوليس بلدة روش ويزل — التى قام حرسها الأهلى بهذه الحملة العسكرية !

كانت الجموع المحتشدة الهائجة تنتظر ، ولما بُصروا بقبعة السجين تعالت من كل الجهات صيحات هائلة ، ورفعت النساء أذرعهن وبكى الكهول من الفرح ، وقذف أحد الجنود البروسى بمكازه ... وجرح أنف أحد قائديه ، وكان الكولونيل يزمجر قائلاً :

— إسهروا على سلامة الأسير !

وبلغوا السجن الذى كان مفتوح الأبواب ، ودُفع والترشناف إليه طليقاً من القيود ، ووقف مائتا رجل مسلحون يحرسون السجن ، وكاد البروسى يجن فرحاً ، وبالرغم من علائم التخمة التى كانت تضايقه أخذ يرقص جذلاً رافعاً ذراعيه وساقيه . وكان يصيح صيحات حادة إلى أن سقط إعياء إلى جانب الحائط ... لقد سُجن ونجا من آلامه !

وفى تلك اللحظة استردّ الأعداء قصر شامبينيه بعد ست ساعات فقط من احتلاله ، وأبلغ الكولونيل « راتيبه » هذا الحادث إلى رئيس الحرس الأهلى فى « روش ويزل » فأنعم عليه بوسام جديد !

وهكذا انتصر الفرنسيون ! ...

« دمشق » ناجى الطنطاوى